بحث مقـــدَّم

لمؤتمر التفسير الموضـــوعي للقرآن الكريم (واقع وآفاق)
جامعة الشارقة كلية الشريعـــة والدراسات الإسلامية
11-12 جمادى الأولى 1431هـــ الموافق 25-2010/4/26

بعنوان

مقاصد القرآن الكلية وأهميتها في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

مقدمه الأستاذ: محمد عبد السلام حسن الحضيري

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

التفسير الموضوعي علمٌ أصبحت له الصدارة بين ألوان التفسير، وهذه المكانة لم تأت هكذا عرضاً، ولم ينلها هذا العلم بين عشيةٍ أوضحاها؛ بل جاءت بعد مرور التفسير بمراحل وأدوار عدة، كان من ثمارها هذا العلم الذي يُعد بحق أحد حلقاتها المترابطة، ونتيجة حتمية وجب علينا الاهتمام بها وإبرازها والتمسك بها.

ونظراً للدور البالغ الذي اضطلع ويضطلع به التفسير الموضوعي من التركيز على هدايات القرآن، واستخلاص الدروس والعبر من مواضيعه، ونظراً للواقع المعاش وما تشهده الأمة من هوان، وتكالب الأعداء عليها، وبُعد الأجيال الجديدة عنه وعن حقائقه وتدبره، لهذا وغيره اتجه العلماء في العصر الحاضر إلى العناية بهذا العلم، وإيقاظ الهمم للكتابة فيه، والتعمق في مواضيع القرآن الكريم من خلاله.

وبعد النظر المتواضع لما كتبه العلماء الأفاضل في أهمية التفسير الموضوعي وضرورته، تبين أن أبرزها وأعلاها هو العناية بمقاصد القرآن الكريم، ولاحظتُ أن هذه المزية مع أهميتها وعلو مكانتها على كافة المزايا والفوائد لم أعلم أحداً من الباحثين جعلها في الصدارة؛ بل بعضهم ذكرها عرضاً ولم يفها حقَّها من البحث، وعلى الرغم من تعرض العلماء القدامى لبيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن الكريم، ومنهم الفيروز آبادي المتوفى سنة 817هـ، وما حرره علماء متأخرون ومنهم الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا، والشيخ سيد قطب، مع كل هذا لا تزال الحاجة ماسة للاهتمام بالمقاصد، وإبراز فضلها وضرورتها في تصحيح مسار التفسير الموضوعي.

ولا يعني هذا الكلام التقليل من باقي الفوائد وعدم الالتفات إليها؛ بل على العكس من ذلك؛ ولكن لاعتقادي الجازم أن التفسير الموضوعي إذا ما وُجِّه إلى الوجهة التي أُنزل القرآن الكريم من أجلها، والمتمثلة في مقاصده ــ وأعلاها هداية البشرية إلى الحق، وتصحيح الاعتقاد ــ كان من اليسير تخطيط حياة الإنسان على أسس موضوعية في كافة المجالات، وإيجاد الحلول الناجعة لكافة المشاكل الواقعية، على وفق ما يحبه الله تعالى ويرضاه، فالقرآن الكريم مصلحٌ لكل زمان ومكان، ولن يتحقق للأمة الإسلامية ما تصبو إليه من توحد وعزة ونصرٍ للإسلام والمسلمين إلا بالرجوع إليه ففيه الدواء الناجع لكل المحن والبلايا.

المطلب الأول:

تعريف المقاصد، والموضوع القرآني، وذكر أهم المؤلِّفين فيهما

أولاً: تعريف مقاصد القرآن لغة واصطلاحاً

المقاصد في اللغة جمع مقصَد، وتعود كلمة مقصد إلى أصل (ق ص د)، القاف والصاد والدال أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان الشيء وأمِّـــه.[1]، جاء في صحاح الجوهري: (القصد إتيان الشيء، تقول: قصدتُه، وقصدت له، وقصدت إليه بمعنى، وقصدتُ قصدَهُ: نحوت نحوه.)[2]، وفي تهذيب اللغة: (القصد: استقامة الطريقة، قصد يقصِد قصداً فهو قاصدٌ [3])، وفي المصباح المنير: (وأما المقصد فيجمع على مقاصد.)[4]

ومقاصد القرآن اصطلاحاً: هي الغايات والأهداف التي أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم من أجلها.

وقد ارتبط لفظ المقاصد بعلم أصول الفقه، إلا أن الأصوليين لم يضعوا تعريفاً للمقاصد بصورة مستقلة، وربما السبب في ذلك عائد لشهرتها عندهم، مع أن بعضهم قد تكلم عنها كثيراً كالشيخ الغزالي، ولكنه ربطها بمصطلح المصلحة، في قوله: (المصلحة، المحافظة على مقصود الشارع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: أن يحفظ عليهم دينَهم ونفسَهم وعقلَهم ونسلَهم ومالَهم.)[5]

وقد عرفها أحد العلماء المفسرين الأصوليين وهو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بقولـــه: (هي المعاني والحِكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتُها بالكون في نوع خاصٍ من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصافُ الشريعة

---

[1] ابن زكريا، الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هــ- 2001م، مادة (قصد) ص859

[2] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1420هــ-1999م، مادة (قصد) 2: 131

[3] الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، **معجم تهذيب اللغة**، تحقيق: د. رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هــ2001م، مادة (قصد) م3ص2971

[4] الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير**، تحقيق: يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1429هــ- 2008م، ص 305

[5] الغزالي، أبوحامد محمد بن محمد الغزالي، **المستصفى من علم الأصول**، تصحيح: نجوى ضو، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى د.ت، ج1ص217

وغاياتُها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معانٍ من الحِكَم ليست ملحوظةً في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها.)[6]

ولقد اجتهد العلماء في استخراج المقاصد من كتب الفقه وأصوله، وكان أحرى بهم التماسها من القرآن الكريم نفسه، فهو النور المبين، والأساس الركين في استجلاء مقاصد القرآن الكريم، قال الشيخ الشاطبي:

(إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر...وإذا كان كذلك لزم ضرورةً لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي، نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدهما... ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب.)[7]

وكل هذه التعريفات لا تعنينا في هذا البحث بقدر كبير؛ لأن التعريف بمقاصد القرآن هو أن يستنطقها المفسر من القرآن الكريم نفسه، أما مقاصد التشريع فيستخرجها الأصولي من كتب الفقه وأصوله.

أبرز المؤلفين في مقاصد القرآن الكريم

ومع أن بعض العلماء قد تكلم عن مقاصد القرآن إلا أنها لم تحظ بالنصيب الأوفر كما حظيت به مقاصد التشريع التي أفاض فيها القول الأصوليون، وتعددت فيها الدراسات قديماً وحديثاً.

والدراسات المؤلفة في المقاصد نوعان:

الأول: نوع صُدِّرت به أسماء بعض كتب التفسير، ومنها تفسير **فتح البيان في مقاصد القرآن**، للشيخ أبي الطيب صدِّيق بن حسن بن علي الحسين القِنوجي البخاري، المتوفى سنة 1307هـ

---

[6] ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار الفجر، ماليزيا، ودار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى 1420هـ- 1999م، ص183

[7] الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، **الموافقات في أصول الشريعة**، شرح وتخريج الأحاديث: مجموعة من العلماء، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ-2001م، المجلد الثاني،ج3 ص257

الثاني: دراسات تناولت المقاصد في ذاتها، من خلال تعريفها، ووضع أسس لها، وإفرادها بالدرس والتحليل في كتب مستقلة، ومن هذه الدراسات:

أولاً: دراسة قام بها الشيخ العز بن عبد السلام، المتوفى عام 660هـ،بعنوان(**نبذٌ من مقاصد الكتاب العزيز**)، إلا أنه لم يأت على كل المقاصد، وخاصة الكلية منها، فخير ما يوصف به أنه كتاب في علوم القرآن، وربما يخالفني البعض في هذا الرأي، ولكن هذا ما لاح لي من خلال قراءاتي له، ومما تناوله في نُبَذِهِ : الخطاب القرآني من طلب ونداء ومدح، وذم، ووعد، ووعيد، وضرب الأمثال، والأحكام الضرورية للتفسير، والعام والخاص، والقراءات القرآنية، والحقيقة والمجاز، والتقديم والتأخير، يقول في المقدمة: (أنزلَ كتابه الكريم نصائح لعباده ليدبروا آياته، فيعملوا بمحكمه، ويؤمنوا بمتشابهاته، ليسعدوا في الدنيا بمعرفته وطاعته، ويفوزوا في الآخرة بقربه وكرامته، فجعل كتابه مشتملاً على الأحكام، وأخبار مؤكدة للأحكام، فالأحكام حظرٌ وإيجابٌ، وكراهةٌ واستحبابٌ، وإذنٌ وإطلاقٌ....)[8]

وأما مقاصد القرآن عند السيد محمد رشيد رضا فقد جاءت في كتابه (**الوحي المحمدي**) وضمنها في عشرة مقاصد، يقول في مقدمته: (وإنما مزية هذا الكتاب أنه بيَّن إعجاز القرآن للبشر بالدلائل العلمية العصرية، التي يفهمها كل قارئ، وأبرز لهم خلاصة إصلاحه للبشر مفصلة في عشرة مقاصد.)[9]

ومن العلماء المعاصرين الذين كتبوا في المقاصد الدكتور القرضاوي الذي ضمنها سبعة مقاصد في كتابه (**كيف نتعامل مع القرآن**) بدأها بتصحيح العقائد، وختمها بالعودة إلى عالم إنساني متعاون، يقول: (ومما يؤسف له أن هذا المجال قد وقع فيه خلل خطير في الفهم والتفسير، ولهذا كان لا بدَّ من وضع معالم مضيئة على الطريق، وضوابط عاصمة من كل قاصمة، ومن التحذير من المزالق التي توقع في الهاوية، وما أدراك ماهيه؟)[10]

---

[8] عز الدين، العز بن عبدالسلام، **نبذ من مقاصد الكتاب العزيز**، تحقيق: أيمن عبد الرزاق الشوا، مكتبة الشام، دمشق، سورية، ط1، 1416هـ 1995م، ص16، 17

[9] رضا، السيد محمد رشيد، **الوحي المحمدي**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 3، 1406هـ، ص7

[10] د. القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، دار الشروق، القاهرة، ط3، 1421هـ 2000م، ص12

ثانياً: تعريف التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

من الأجدر أن نورد بعض أقوال العلماء في التفسير الموضوعي، ثم نعرج على تعريف الموضوع القرآني.

فالتفسير الموضوعي: هو لون من ألوان التفسير، وقد عرفه العلماء بعدة تعريفات نورد اثنين منها:

الأول تعريف للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد قال فيه: (هو علمٌ يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أوغاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع.)[11]

التعريف الثاني: هو علمٌ يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.

وعقَّب الدكتور مصطفى مسلم على هذا التعريف بأنه الأرجح على غيره من التعاريف، بقوله: (ولعل التعريف الأخير هو الأرجح، لخلوه عن التكرار، ولإشارته إلى النوعين الرئيسيين.)[12]

وحظي هذا التعريف بالقبول لدى كثير من العلماء والباحثين، وذلك لأنه أجمع لكل معاني التعاريف السابقة عليه، وهو أشملها، يقول د.زياد خليل الدغامين:(وأجمع هذه المعاني وأشملها ما ذكره د. مصطفى مسلم، وهو أنه علمٌ يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.)[13]

أما الموضوع القرآني: فهو لونٌ من ألوان التفسير الموضوعي، ولا نبالغ إذا قلنا إنه أعم وأشمل من بقية الأنواع الأخرى، لأن مجال البحث فيه لا يقتصر على مصطلح أو سورة؛ بل يتعدى إلى أكبر من ذلك.

---

[11] سعيد، عبدالستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي**، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط2، 1411هـ- 1991م ص20

[12] د. مسلم، مصطفى، **مباحث في التفسير الموضوعي**، دار القلم، دمشق، سورية، ط 2- 1418هـ- 1997م ،ص16

[13] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** ، دار البشير، عمان ، الأردن،ط 1، 1995م، ص14

والموضوع لغة: هو محل العرض المختص به، وقيل: هو الأمر الموجود في الذهن.[14]

واصطلاحاً: قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم.[15]

ومن الضروري معرفة حد كل علمٍ قبل الولوج فيه، ومثال ذلك التعريف السابق للموضوع، فقد تبين منه أن المفسر في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني غير مقيد بمصطلحٍ معينٍ، أو آية أو سورة بعينها، كما هو في ألوان التفسير الموضوعي الأخرى، وكذلك فإن المفسر غير مقيد بما هو وارد في ترتيب الآيات في المصحف كما هو في التفسير الموضعي التحليلي.

أبرز المؤلفين في الموضوع القرآني

نستطيع القول إنَّ بداية التأليف في الموضوع القرآني قديمةٌ وحديثةٌ في آن، قديمة من حيث النشأة والتأليف، وحديثة من حيث التجديد والمنهجية المتبعة، وقد تعدد المؤلفون، وتنوَّعت المواضيع المتناولة، فمن كاتبٍ في موضوع إعجاز القرآن، وأحكامه، إلى كاتبٍ في أمثاله، وناسخه ومنسوخه، أومجازه، وقَسَمِهِ، إلى غير ذلك من المواضيع، ومن أبرز العلماء القدامى على سبيل المثال لا الحصر:

- قتادة بن دعامة السدوسي المتوفَّى سنة 118هـ في كتابه (**الناسخ والمنسوخ**)، وأبوعبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة 210هـ في (**مجاز القرآن**) وأبوعبيد القاسم بن سلام، المتوفى 224هـ في (**الناسخ والمنسوخ**) وعمر بن بحر الجاحظ المتوفى سنة 255هـ، فقد تناول موضوعات من مواضيع القرآن الكريم، من ذلك موضوع النار في القرآن، وأنواع العذاب كالعذاب بالجراد والقمل والماء، يقـول د. مصطفى الصاوي الجويني:

(ولعلَّ الجاحظ حين سلك مسلك مدرسته هذا، ووسَّع نظرته الشاملة للقرآن، متنبِّهٌ إلى ما ننادي به اليوم من تفسير موضوعي للقرآن، يتناوله موضوعاً موضوعاً في وحدةٍ متكاملة، وفي نسقها التاريخي.)[16]

---

[14] الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني، **التعريفات**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ 2000م، ص233

[15] د. مسلم، مصطفى، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص16

[16] الجويني، مصطفى الصاوي، **مناهج في التفسير**، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص: 108

ومن الكتب أيضاً كتاب (**أحكام القرآن للجصَّاص**) 370هـ، و(**التبيان في أقسام القرآن**) لابن القيم المتوفى سنة 751هـ.

ومن أبرز من ألّف فيه من العلماء المحدثين:

- محمد صديق خان1307هـ له (**تفسير آيات الأحكام**) ومحمد عزة دروزة، ولد عام 1305هـ، له (**الدستور القرآني في شئون الحياة**) ومصطفى صادق الرافعي، المتوفى 1356هـ وكتابه (**إعجاز القرآن**)

وعلى الرغم من اعتراض بعض العلماء في وضع هذه المصنفات ضمن التفسير الموضوعي بحجة أنها دراسات حول القرآن، وأنها قائمة على الاحتمال، مع كل ذلك أقول:

إن كتابات العلماء القدامى تعدُّ البذرة الأولى لهذا العلم، والنواة الباسقة له، ولست مع القائلين بغير ذلك، فلكلِّ عِلم بداية، ولاشك أن البداية بأي فكرة ستكون حتماً ناقصة ، ثمَّ تتطور شيئاً فشيئاً حتى تكتمل وتؤتي نتاجها ونتائجها، ومثال هذا ما حصل في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، فقد بدأ باختلاط ومزج بين ما هو موضوع من مواضيع القرآن، وبين ما هو من دراسات تتعلق بعلومه، ثم توالت المؤلفات وتخمرت الفكرة مع المنهجية إلى أن وصلت ما وصلت إليه حديثاً من وضع معالم وأسس توحد المنهج والمنهجية معاً، ومن غير المنطقي أن نبخس الدور الذي قام به أولئك الأفذاذ، فهم بلا شك هم المؤسسون لهذا العلم، وهم من وضع أركانه، وما فعله المحدثون إلا استكمال ذلك البنيان، ومحاولة تحسينه وترميمه، كالدراسة التي قام بها الشيخ القرضاوي حول الصبر في القرآن، أو الدراسة التي قام بها الأستاذ محمد عزة دروزة، في دراسته عن اليهود في القرآن، أو الدراسات الجادة التي يقوم بها الباحثون في الدراسات العليا، كل تلك الجهود ما هي إلا نتاج لما استُمِدَّ من السابق، في مشاهد تُضفي على الموضوع القرآني صوراً جماليةً رائعةً، في حلقات متلاصقة ومتعانقة تربط الماضي بالحاضر، والسابق باللاحق.

المطلب الثاني: المقاصد الكلية للقرآن الكريم.

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، الحجة الباقية، والمعجزة الدائمة، أنزله الله تعالى على خير خلقه محمد ﷺ لغايات وأهداف ومقاصد حريٌّ بالمؤمن أن يعيها ويستوعبها، كي يدرك المغزى من خلق الله له، وماذا يريد منه، هذا للمؤمن عامةً، وأما المفسِّر على سبيل الخصوص فهو من باب أولى أن يمعن النظر فيها ويستخرج ويستنبط أسرارها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وسوف نقصر البحث – هنا – على المقاصد الكلية، لضرورة العلم بها، ولصعوبة حصر كل المقاصد، طلباً للدقة ومحاولة استيفاء الموضوع من أغلب جوانبه.

وسوف ندرس المقاصد الكلية دراسة مجملة بدمج بعض منها في بعض، وتسليط الضوء عليها من خلال خطاب الله تعالى في القرآن الكريم، واستظهارها من الآيات في الجوانب الآتية:

المقصد الأول: قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾[17]

عدَّ العلماء هذا الخطاب الإلهي المقصد الأعلى من مقاصد القرآن، وهو **الدعوة إلى عبادة الله تعالى والإقرار بوحدانيته**، وهي دعوة كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فالغاية من خلق الله تعالى للثقلين الجن والإنس هي عبادته التي أصلها كمال محبته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[18].

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: (فالحصر المستفاد من قوله ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ قصر علة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصرٌ إضافي، وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة... وأنه ما خلقهم إلا لينتظم أمرهم

---

[17] سورة يس، 36: 61

[18] سورة الذاريات، 51: 56

بوقوفهم عند حدود التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي، فعبادة الإنسان ربه لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه، وعِلَّةً لحصوله عادة.)[19]

وبهذا يقرر القرآن الكريم المقصد من خلق الثقلين، كي يدرك كلٌّ منهما مهمته، وليعلما أنهما لم يُخلقا عبثاً، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[20].

ويهدف من وراء هذا المقصد أيضاً الدعوة إلى حرية الإنسان بحيث لا يكون خضوعه وتضرعه واستكانته إلا لخالقه وحده لا شريك له، ويتضمن أيضاً الدعوة إلى المساواة والإخاء بين بني البشر فخالقهم واحد، وهم من أب واحد وأم واحدة، وهما آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام، قال الله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.[21]

ولعِظَم هذا المقصد حذَّر الله تعالى في آي الذكر الحكيم من الإشراك به، وعدّه من أكبر الكبائر، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[22]، وقولــــه: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.[23]

وقد تعددت أساليب القرآن في تثبيت هذا المقصد لئلا يغفل الناس عن مهمتهم العظمى التي خلقوا من أجلها، ولا يجب أن يصرفهم عنها أي صارف، ولا يشغلهم عنها أية مشاغل، وهذه الأساليب منها: ضرب الأمثال، ومنها القصص القرآني، والترغيب والترهيب، وبيان عاقبة من آمن، ومن كفر، وجزاء كل فريق، كل ذلك لبيان شرف المقصِد والمقصود.

---

[19] ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ص26، 27

[20] سورة المؤمنون 23: 115

[21] سورة النساء 4: 1

[22] سورة النساء 4 : 48

[23] سورة لقمان 31: 13

والإخلاص في العبادة هو شرط لازمٌ لقبولها، بل هو شرط لقبول أي عمل، فهو مقصد عظيمٌ من مقاصد القرآن وهو لبُّ العبادة وروحها، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾[24]

1 -المقصد الثاني:

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[25]

من مقاصد القرآن العظمى **تزكية النفس**، والتزكية مشتقة من زكا يزكو، وهي بمعنى التطهير، أي يطهر النفوس بهدي الإسلام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[26]، وفي جعل التزكية مقصد من مقاصد القرآن العظمى سرٌ عظيمٌ أحببت أن أذكره، وهو أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق النفس البشرية خلقها نفساً سويةً طاهرةً نقيةً، حتى أقسم بها في قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[27] وهي عزيزة على المرء لأنها نفسه، ولكن مع كل هذا هي عدوةٌ له، فتزين له الشرور والآثام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[28] ولكي ينجح الإنسان في دار البلاء ويفلح ما عليه إلا بمجاهدة نفسه والتغلب عليها، ولهذا فالقرآن الكريم مليءٌ بالآيات المرغبة في ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[29] وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[30]،

---

[24] سورة النساء 4 : 146
[25] سورة آل عمران، 3 : 164
[26] سورة الجمعة، 62: 2
[27] سورة الشمس، 91: 7
[28] سورة يوسف، 12: 53
[29] سورة فاطر، 35: 18

وملئٌ أيضاً بالآيات المنبهة والمحذرة من الوقوع في اتباعها كي لا يقع في الخيبة والخسران الذي ما بعده خسران، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[31] وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[32].

والحكمة في ذلك أيضاً أن الله عز وجل يريد من الإنسان الذي أسلم وجهه له، أن يخلص في عبادته، وسائر أعماله، وأن يطهر نفسه من الرذائل والموبقات بالمجاهدة، والصبر، والتحلي بمكارم الأخلاق والصفات المحمودة، والصبرعلى أداء الطاعات، وترك المحرمات، والثبات على ذلك حتى يلقى الله ونفسه راضية مرضية، وحتى ترجع إلى بارئها سويةً طاهرةً كما بدأها أول مرة، وتسعد وتهنأ بمخاطبة الله تعالى لها بالرضى التام والدخول إلى دار النعيم المقيم، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[33]، يقول السيد محمد رشيد رضا: (القرآن كتاب هداية فعلية، لا كتاب فن وعلم نظري، فهو يرشد متدبره والمتفقه فيه إلى داعيتي الحق والخير والباطل والشر من نفسه، وإلى طريق تزكيتها، بمحاسبتها على أعمالها، لتغليب الحق والخير على ضدهما.)[34]

المقصد الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[35]

بيان هذا المقصد أن نعي كل الوعي وندرك كل الإدراك مكانة الحبيب المصطفى ﷺ ، وسر بعثته ، ومزية رسالته على سائر الرسالات، **فالمقصد هو أنه ما أرسل إلا رحمة للعالمين،** ففي الآية مدحٌ للمرسِل وهو الله جل في علاه، ومدحٌ للمرسَل وهو الحبيب المصطفى ﷺ ، ومدحٌ للرسالة أيضاً، فهي مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وببعثته تجلت مظاهر الرحمة على الأمة، فهوت الأصنام والأوثان، وتحرر الإنسان من عبودية غير الإله الحق سبحانه وتعالى، وبرزت معاني عظيمة تجلت فيها الرحمة من إقامة العدل بين الناس، ومناصرة المظلومين، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، يقول الشيخ المراغي: (بيان هذا أنه عليه السلام

---

[30] سورة الشمس، 91: 9

[31] سورة الشمس، 91: 10

[32] سورة الزمر، 39:

[33] سورة الفجر، 89: 27، 28، 29، 30

[34] رضا، السيد محمد رشيد، **الوحي المحمدي**، ص210

[35] سورة الأنبياء، 21: 107

أرسل بما فيه المصلحة في الدارين؛ إلا أن الكافر فوَّت على نفسه الانتفاع بذلك، وأعرض عما هنالك، لفساد استعداده، وقبح طويته، ولم يقبل هذه الرحمة، ولم يشكر هذه النعمة، فلم يسعد لا في دين ولا في دنيا.)[36]

ومن مظاهر هذه الرحمة أنه ﷺ فُطر على خُلق الرحمة في جميع معاملاته، ومع سائر الناس، مؤمنهم وكافرهم، وهي منَّةٌ منَ الله عظيمة أضفاها على سيد الوجود، قال الله تعالى:

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[37] فهو قرآن يمشي على الأرض، حتى عبَّرت السيدة عائشة رضي الله عنها في وصف خلُقه ﷺ بقولها: (كان خلُقه القرآن).

ومن مظاهرها أيضاً التعاليم السمحة السهلة الميسرة التي بعثه الله بها رحمة للعالمين، فلا حرج ولا مشقة ولا إكراه في الدين ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾[38] فلم يؤمر المسلم بما يثقل عليه، وإنما أمر بأداء الشيء القليل، وفي مقابل ذلك يجازى عليه الخير العظيم، فهي صورة وأثر من آثار الرحمة المهداة.

ومن مظاهر الرحمة أن الله تعالى لم يعذب هذه الأمة بتكليفهم بأعمال شاقة فرضت عليهم عقوبة لهم، كما فرض على أمم سبقتهم.

ومن مظاهر رحمته بغير المسلمين فقد دعا القرآن إلى التسامح معهم، وحسن التعامل بروح إنسانيةٍ عاليةٍ، فهم أهل الذمة، ورحمته بهم في عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، قال تعالى : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

[36] المراغي، أحمد مصطفى، **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص78

[37] سورة التوبة، 8: 128

[38] سورة الحج، 22: 78

ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[39] وهو بهذا يدعو إلى إقامة علاقات بين الأمم والشعوب أساسها الاحترام المتبادل، وإقامة العدل، وهذا كله من بعثته ﷺ رحمة للعالمين.

ومن محبة الله تعالى لنبيه ﷺ أن الرحمة لم ولن تنته بوفاته ﷺ ، فالله سبحانه وتعالى يصلي عليه، والملائكة تصلي عليه، وأمرنا بالصلاة والسلام عليه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[40]وعظيمُ أجرها لا يخفى على من أخلص في محبته ﷺ.

ولا ريب أن جميع الخلائق سيحتاجون إلى هذه الرحمة، ليس في حياتهم الدنيا فحسب، بل وفي يوم الفزع الأكبر أيضاً، يوم يخصُّه الله تعالى دون الأنبياء كلهم بالشفاعة التي هي مظهر من مظاهر الرحمة، فيقول : أنا لها، أنا لها، ويشفع لكل موحد بالله تعالى.

المقصد الرابع: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

التكريم الألهي لبني آدم مقصدٌ عظيم من مقاصد القرآن الكلية الذي لو استشعر الإنسان سره وعظمته لخر لله ساجداً، فكرم الكريم سبحانه لا يعدله كرم، وعطاياه لا يساويها عطاء ، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[41] فالآية متضمنة لمنة التكريم، وكرم الكريم يظهر في تسخير المراكب في البر والبحر، وكرمه في الرزق من الطيبات، والتفضيل على سائر المخلوقات، فالتكريم إذن هو عظيم؛ لأنه من الوهاب العظيم، فالعطية يكون قدرها على مكانة وقيمة المعطِي، فالله تعالى أكرم الكرماء، ومن كرمه على بني آدم أن فضَّلهم على سائر المخلوقات.

والتفضيل والتكريم بينهما عموم وخصوص، يقول الشيخ ابن عاشور: (والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص، فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل

---

[39] سورة الممتحنة، 60: 8

[40] سورة الأحزاب، 33 : 56

[41] سورة الإسراء 17: 70

منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنه فضَّله بالعقل، الذي به استصلاح شؤونه، ودفع الأضرار عنه، وبأنواع المعارف والعلوم، هذا هو التفضيل المراد.)[42]

وهذا التكريم ضمن للإنسان حقوقاً تؤكد كرامته، وحقه في حياة كريمة يسودها الأمن والأمان، ومن مظاهره: تكريمه لبني آدم بحرية الاعتقاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمساواة، والاستمتاع بالطيبات، والعمل الشريف، وتكوين الأسرة، وصيانة العِرض، وحق الدفاع عن النفس، ويغنينا عن حصرها – مع عجزنا عن ذلك – قول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [43] ،

وقوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[44]

يقول الشيخ العز بن عبدالسلام: (اعلم أن التمنُّن مقتضٍ للإذن والإباحة والشكر، إذ لا يصح التمنن إلا بإنعام، وإحسان غير ممنوع.)[45]

ومن مظاهر تكريم الله تعالى لبني آدم تكريمه للمرأة، وحقها في حياة كريمة، فضمن لها تلك الحقوق من الحرية، والتعليم، والإحسان، والزواج، والميراث، وقد نزلت آيات كثيرة في شأن المرأة؛ بل إن السورة الرابعة من سور القرآن الكريم سميت بسورة النساء، يقول الشيخ محمد رشيد رضا: (وجملة القول: أنه ما وجد دين ولا شرعٌ ولا قانونٌ في أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم، إلى محمد النبي الأمي المبعوث في الأميين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العلمين.)[46]

ومن المظاهر البارزة في كرم الكريم سبحانه دعوته إلى السعي في الأرض واستغلال ثرواتها لما فيه الصالح العام، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن

---

[42] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 15: 166

[43] سورة لقمان، 31: 20

[44] سورة إبراهيم، 14: 34

[45] العز بن عبدالسلام، **نبذ من مقاصد الكتاب العزيز**، ص47

[46] محمد رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، ص338

رِزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[47] ففي هذه الآية تذكير الله لبني الإنسان أنه سخر لهم الأرض، وذلّلها لهم وجعلها مستقرة ثابتة لا تميد ولا تضطرب، ودعوته لهم بالسعي فيها والانتفاع بما فيها والاتجار والكسب، قال الشيخ المراغي في تفسيره هذه الآية: (وفي الآية إيماءٌ إلى ندب التجارة والتكسب بجميع ضروبه.)[48]

وهذه المعاني كلها تُشعر بأن الله تعالى يحب التوكل مع أخذ الأسباب، ويكره التواكل والتكاسل والاعتماد على الآخرين، كما أنه في ذات الوقت حذر من الإفساد في الأرض والسعي في خرابها، وهو أحد مقاصد القرآن في تكريم الله للإنسان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[49]، وفي قوله تعالى:﴿ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾فيه دلالة على أن الله تعالى عندما خلق الأرض خلقها على نظام صالح، فالبعدية الواردة في الآية حقيقية كما قرره العلماء، قال تعالى:﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[50]، ولتثبيت هذا المقصد ضرب الله تعالى الأمثال، وأورد كثيراً من الأخبار وقصص الأنبياء السابقين، وذكر أحوال أقوامهم الذين صدوا عن السبيل، وأفسدوا في الأرض، وكيف كان إفسادهم وبالاً عليهم بأن عجل لهم العذاب نصرةً لرسله، كل ذلك علامة ودلالة لعلو وارتفاع الإصلاح في الأرض، وعلامة أيضاً على تدني وانحطاط الإفساد والمفسدين فيها.

---

[47] سورة الملك، 67: 15

[48] المراغي، **تفسير المراغي** 29: 15

[49] سورة الأعراف 7 : 56

[50] سورة فصلت، 41: 10

المطلب الثالث: أهمية المقاصد الكلية في الموضوع القرآني

تبين مما سبق أن المقاصد الكلية تكمن في الغايات والأهداف الجامعة التي أنزل القرآن الكريم من أجلها، وكما أن لمعرفة تلك المقاصد أهمية كبرى لكل المسلمين، فإن معرفتها واستخراج أسرارها من لدن العلماء والراسخين في العلم من باب أولى، بل قال بعض العلماء: إن معرفتها من الضروريات، ومن أوجب الواجبات.

وسوف نستكشف أهمية المقاصد القرآنية والدور الذي تقوم به في درس عظيم، وعلم جليل، وهو **الموضوع القرآني**، مستعينين بالله تعالى أن يلهمنا رشدنا، ويهدينا إلى سواء السبيل.

ونقول: إن أهميتها تكمن في الجوانب التالية:

أولاً: معرفة المقاصد الكلية ضرورة

إن العلم بمقاصد القرآن الكريم الكلية ضرورة حتمية في دراسة الموضوع القرآني، فإذا كان الاتجاه السليم لتصحيح مسارات جميع العلوم هو بعث الحياة فيها من جديد من خلال نشر هدايات القرآن الكريم، وبثه فيها من خلال مقاصده، فمن باب أولى أن يكون من لزوميات البحث في الموضوع القرآني، فلا يمكن أن نتصور مفسراً يحاول دراسة موضوع من

موضوعات القرآن الكريم وهو لا يدرك ماهية المقاصد، ولا ينزله ا منزلتها في بحثه، ولا يدرس تلك الموضوعات وفق مقتضياتها، فمن كتاب الله تعالى تستفاد مقاصد الشارع الحكيم، من إرسال الرسل، وتنزيل الكتب، وبيان العقيدة والأحكام، وتكليف المكلفين ومجازاتهم، وبعث الخلائق والحياة والكون والوجود.

لذا قرر العلماء ضرورتها للمفسرين عامة، ولمن يريد الولوج في دراسة موضوعات القرآن الكريم على سبيل الخصوص، فالمقاصد تمثل ثوابت الإسلام ومراميه، وتمثل عنصر الوحدة لحركة الفكر الإسلامي، وهي خير مؤسس لهذا الفكر في مختلف القضايا التي يواجهها، ولا يكون جديراً بهذا إلا بقدر ما يتمثل مقاصد القرآن ويصطبغ بها.

ثانياً: تعين على تدبر القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وقد أمرنا بالتعبد بتلاوته، وأمرنا بقراءته قراءة مرتلة مسترسلة في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[51] وجاء الأمر الإلهي أيضاً بالتدبر والتفكر في آي الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[52]؛

ولم يقف الخطاب القرآني عند هذا فحسب؛ بل ذم المقصرين في عدم تدبرهم، وشبَّه قلوبهم في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المقفلة، قال تعالى :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[53].

---

[51] سورة المزمل 73 : 4

[52] سورة ص 38: 29

[53] سورة محمد ﷺ 47 : 24

وإن معرفة المقاصد قبل الولوج في الموضوع القرآني تعود على المفسر بعظيم المنفعة، فبإلمامه للمقاصد وتمثُّله لحِكمها يتحصل على ملكة الفهم والاستنباط، فتعينه على التدبر الذي أمرنا الله به، وهذه لا شك من أعظم الفوائد والمزايا التي يعود فضلها لمقاصد القرآن الكريم، ولهذا ربط بعض العلماء التدبر بالمقاصد، قال الشيخ الشاطبي في تفسيره للتدبر الوارد في الأمر الإلهي في الآية الكريمة: (فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهرٌ في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر.)[54]

وأما الشيخ ابن عاشور فذهب إلى ما ذهب إليه الشاطبي، حيث قال: (فمعنى يتدبرون القرآن: يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين، أحدهما أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله، وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق، وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبر هنا على المعنى الأول، أي لو تأملوا وتدبروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم.)[55]

وإن قول ابن عاشور:(أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين) لهو قول عالمٍ حكيمٍ مستبصر، وإن قوله هذا مؤيدٌ لما نرمي إليه ونبغيه، في التأكيد على أهمية دور المقاصد في درس الموضوع القرآني، بل يكفي الموضوع القرآني أهمية وفخراً وعزةً أنه يعين على التدبر في آي الذكر الحكيم.

ثالثاً: الإلمام بموضوعات القرآن، وحسن اختيار موضوعه

من الصعوبة بمكان أن يلم المفسر في موضوعات القرآن بكل تلك الموضوعات إذا لم يكن على استيعاب شاملٍ لمقاصد القرآن الكلية، فهي نعم الزاد وخير معين على ذلك، وذلك لتفرق الموضوعات القرآنية في القرآن الكريم، فصار من اللازم استيعاب تلك المقاصد واستشعار أسرارها وحِكمها، بعد ذلك يشرع المفسِّر أو الباحث في الكشف والتنقيب عن الموضوعات القرآنية التي ينبغي أن تكون منطلقة من تلك المقاصد، وخادمة لها أيضاً، وبعد ذلك سيجد المفسر أنه منطلق من ثوابت متينة راسخة تعينه في اختيار موضوع حيٍّ وحيويٍّ في آن، وتمكنه من تحديد معالم حدوده، ومعرفة أبعاده في الآيات، ثم يضع تصوُّراً مناسباً له، وهذه الخطوات تعتبر اللبنات الأولى، والأساس المخطط لما بعده من خطوات، وهذه الخطوة أو المرحلة هي أصعب الخطوات والمراحل، فلو تم اختيار الموضوع عشوائياً دون دراية

---

[54] الشاطبي، **الموافقــات في أصول الشريعة**، المجلد الثاني، ج3ص287

[55] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 5: 137، 138

وعلم بمقاصد القرآن الكريم ودون التبصر فيها فإن الموضوع لن يؤتي ثماره، بل ستكون نتائجه عكسية، بل ربما يبدأ المفسر في الموضوع الذي اختاره ثم يتعثر فيه ويتركه، لسيختار موضوعاً آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية، وهذا كله بسبب عدم وجود الأساس المتين، والمنطلق السليم، الذي لولاه يختل البنيان، وتنعدم الأركان.

ولأهمية المقاصد في التعرف على موضوعات القرآن وحسن الاختيار منها، نبَّه بعض العلماء في التأكيد على ذلك، ودعوا الباحثين إلى ضرورة أن تكون الموضوعات التي يختارونها منطلقة من هدايات القرآن الكريم في مقاصده، لأن البعد عنها يؤدي في بعض الأحيان إلى التكلف بإدخال في القرآن ما ليس منه، وفي هذا يقول د. عبدالستار فتح الله السعيد:

(وينبغي أن لا يتكلف الباحث فيحاول أن يدخل في القرآن كل شيءٍ مستحدث في العلوم والصناعات، بدعوى شمول القرآن لكل شيءٍ من هذه الوسائل، فإن القرآن الكريم جاء منهاجاً دينياً شاملاً، أما تفصيلات العلوم البشرية فليست من مقاصد القرآن.)[56]

وأما الدكتور زياد خليل، فعمل حَسَناً في دعوته لتأكيد دور المقاصد في اختيار الموضوع القرآني، وجعلها الأساس الذي لا يمكن التخلي عنه، يقول:

(وطريقتي المقترحة في تصنيف موضوعات القرآن تنبني على ضوء المعرفة الكاملة بمقاصد القرآن وغاياته من حيث أنه كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة.)[57].

وبهذا يزداد الأمر في أهميتها وكونها المؤسِّس والباني والمتمم أيضاً، فلا نستطيع أن نقصد موضوعات القرآن بدون المقاصد.

رابعاً: تعيين أسباب اختيار الموضوع وأهدافه

من مقتضيات البحث العلمي أن يذكر الباحث أو المفسر الأسباب المهمة التي جعلته يختار الموضوع، وكذلك يذكر الأهداف المرجوة من وراء البحث فيه، وإن للمقاصد القرآنية دوراً جلياً في الدوافع والأسباب، ولا يمكن بحال الاستغناء عنها، فإذا ما ذكر المفسر أسباب اختيار موضوعه، أو أهدافه ولم يشر من قريب أو بعيد للمقاصد القرآنية فما هي بأسبابٍ ولا

---

[56] سعيد، عبد الستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي**، ص59

[57] الدغامين، زياد خليل، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص36

أهدافٍ أيضاً؛ وإذا سلّمنا جدلاً أنها أسباب وأهداف، فإنها – في الغالب – لن تكون خادمة للقرآن الكريم لكونها لم تكن منطلقة من أسسه وثوابته وإشراقاته ؟

وقد حذّر العلماء من إغفال دور المقاصد سواء في الأسباب أم في الدوافع، حتى لا يؤسس البحث في الموضوع القرآني على أسباب وأهداف غير واضحة، يقول د. مصطفى مسلم في تأكيده لهذا الدور: (وليكن هدف الباحث في كل ذلك إبراز حقائق القرآن الكريم، وعرضها بشكل لافت للنظر، مع ذكر حكمة التشريع وجماله، ووفائه بحاجات البشر، وملاءمته للفطرة السليمة، وإطلاقه للطاقات الإيجابية للإنسان.)[58]

ولكي تكون أسباب اختيار الموضوع مقنعة وأهدافه مقبولة ومثمرة لزم تفهم المقاصد وتمثلها، فالمقاصد والأسباب والأهداف كلها حلقات مترابطة لا ينفك أحدها عن الآخر إلا بوجود خلل في أحدها، وهذا ما لا نرتضيه في الموضوع القرآني.

خامساً: في جمع الآيات، وتقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة

بعد اختيار الموضوع، وتحديد أسباب اختياره، وأهدافه من وراء البحث فيه، يشرع الباحث أو المفسر في جمع الآيات، وهي عملية تحتاج إلى تدقيق وتريث، وينبغي أن تكون المقاصد القرآنية حاضرة في ذهنه وماثلة أمامه، وأما تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة متماسكة، فهي أشبه بمخطط البناء، فكما أن المهندس لا يستطيع أن يعمل مخططاً مترابطاً إلا في ضوء ثوابت كلية يجب أن يستشعرها في كل مرحلة من مراحل وضعه لذلك المخطط، كذلك فإن المفسر الموضوعي لا يكون تقسيمه سليماً ومترابطاً إلا بضرورة وجود المقصد القرآني في كل مرحلة من مراحل ذلك التقسيم، واتباع المنهج العلمي من حيث جمع الآيات، ونزولها التاريخي التدريجي، والمكي والمدني.....

ومن الأمثلة على ذلك الكيفية التي حرم فيها الخمر، فقد نزلت الآيات في تحريمها بأحد أساليب القرآن الكريم في نزوله، وهي حكمة التدريج، فالمفسر الموضوعي لن يتمكن من ترتيب الآيات ترتيباً منطقياً ما لم يكن مدركاً للمقصد القرآني من وراء ذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تخفى على ذي لب، وفي النظر فيها وتتبعها خير شاهد لما نقول.

وذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى القول: إنه لا ضرورة للأخذ بالقول أن تصنف آيات القرآن على حسب تاريخ نزولها، ويرى صعوبة تحقيق ذلك، وحتى لا يكون دور

---

[58] د. مصطفى مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص38، 39

المقاصد فرعياً، كما ذهبت إليه المدرسة الأدبية، يقول الدكتور زياد: (وما أشارت إليه المدرسة الأدبية من ضرورة تصنيف آيات القرآن على حسب تاريخ نزولها أمر ما أظنه ممكناً، بسبب الصعوبة البالغة في تحديد آيات وتاريخ نزول كل نجم قرآني على وجه الدقة، وحتى لو استطعنا ذلك بشق الأنفس فإن الفائدة المرجوة تهم الأديب الذي يسعى إلى إدراك الإعجاز القرآني بمظهر وأسلوب وصورة جديدة، ومعرفة أصل استعمال كل مفردة، ويجرد بحثه لهذا الغرض، وتكون المقاصد الأخرى المتعلقة بهداية القرآن العامة فرعية ثانوية.)[59]

لذا ينبغي الاهتمام بالمقاصد فهي السبيل الأمثل لجعل خارطة الموضوع مترابطة، وحتى تتم العمليات التي بعدها بشكل صحيح، وخال من الخلل والعيوب.

سادسًا: حل مشكلات الواقع المعاصر

القرآن الكريم مصلح لكل زمان ومكان، يهدي للتي هي أقوم، من أعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً، وإن دعوة القرآن الكريم في إصلاح البلاد والعباد، وإعمار الأرض، وعدم الفساد فيها مقصد عظيم من مقاصد القرآن الكريم، ومعلم من معالم هداياته.

إن المفسر للموضوع القرآني والمستشعر للمقاصد القرآنية في اختياره لموضوعه، بحيث يرى من خلاله تقديم خدمة لواقعه لاشك أن النتائج المرجوة من موضوعه ستكون ذات جدوى، وهذه ميزة من مزايا هذا اللون من التفسير فرضها على ألوان التفسير الأخرى، ولا نبالغ إذا قلنا إن المستقبل للتفسير سيكون مزدهراً أكثر في ظل وجود علماء أجلاء يبصِّرون الناس بأسرار هذا النور والتعمق في استخراج مواضيعه من آياته، ووضعها حلاً لجميع المعضلات والمحن، لأن المشاكل التي تواجه الناس متجددة ما دامت الحياة، ونصوص القرآن الكريم محددة، ولا يمكن أن نجد حلاً لكل مشكلة مذكورة باسمها؛ بل نستخرج الحل الذي هو موجود حتماً، لكن من مقاصده وهداياته ، يقول د. مصطفى مسلم:

(إن نصوص القرآن الكريم محددة، والقضايا التي تتناولها بالتوضيح والبيان والتفصيل محددة أيضاً، أما المشاكل الإنسانية وآفاق المعرفة فغير محددة....ولا يمكن أن نجابه هذه المشكلات بظواهر النصوص المحددة، بل نجد المرونة والسعة في الخطوط

---

[59] الدغامين، زياد خليل، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص36

الأساسية التي تعرض لها آيات التنزيل..... لذا لا يمكن أن نواجه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم أو بأسلوب التفسير الموضوعي.)[60]

ويذهب في نفس الاتجاه كثير من الباحثين، منهم د.صلاح الخالدي، في قوله: (التفسير الموضوعي من العوامل الأساسية في حل مشكلات المسلمين المعاصرة، وتقديم الحلول لها على أساس القرآن..... وعندما يبحث الباحثون في التفسير الموضوعي، فإنهم يقدِّمون للمسلمين الحلول القرآنية لمشكلاتهم العديدة.)[61]

وهكذا يتضح جلياً مدى الفوائد المرجوة من المقاصد القرآنية في توجيه الباحثين لمعالجة قضايا الأمة من خلال الاتجاه السليم في تناول الموضوعات القرآنية التي سيكون لها – إن شاء الله تعالى- اليد الطولى في إيجاد الحل لكل ما يستجد على الأمة من قضايا أو معضلات.

سابعاً: الوجهة الصحيحة في التفسير

تمثل مقاصد القرآن الموجه والحارس للمفسر والباحث في الموضوع القرآني، فتوجهه الوجهة الصحيحة في جميع المراحل في دراسة موضوعه، وتحرسه من الوقوع في الخطأ، والبعد عن المقاصد والمقصد، فتعينه على التركيز في الموضوع، واستظهار هدايات القرآن التي لو حاد عنها قيد أنملة حاد عن الطريق القويم.

وإن دور مقاصد القرآن في الموضوع القرآني لا يقف عند هذا الحد؛ بل هي تعين الباحث في تحديد الاتجاه والفكرة أيضاً، فلا يستطيع أن يلتفت هنا وهنالك، فيدرس موضوعه مجرداً عن أي فكرة موجودة في ذهنة، أو انحياز لمذهب معين، أو طائفة بعينها، أو يتجه بالتفسير إلى الاستغراق في المذاهب الكلامية، أو القواعد اللغوية، أو سرد الإسرائيليات والموضوعات في القرآن الكريم، يقول د. عبدالستار سعيد: (إصلاح طريقة التفسير وإنضاجه، وذلك بحصر الجهود في الحقائق والمقاصد القرآنية....وهدايته تكمن في مقاصده ومعانيه...فلا يجد المفسر فرصة للاستغراق في لونه الفني....وقد يذكر شيئاً من هذه الفنون عرضاً لا غرضاً....ويجد المفسر نفسه دائماً في دائرة الموضوع الواحد، المحدد المعالم،

---

[60] د. مصطفى مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص 30، 39

[61] د. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق** ، دار النفائس، الأردن، ط1418،1هـ 1997م، ص49

والمتقيد بالآيات الكريمة ذاتها، وفي إطار معانيها ومقاصدها، وحقائقها العليا، وفق المنهج العلمي الصحيح.)[62]

وبذا تتضح الأهمية الكبرى للمقاصد القرآنية ودورها البارز في توجيه المفسر الموضوعي إلى الوجهة الصحيحة.

وحقيقة فإن التفسير الموضوعي بشكل عام، والموضوع القرآني منه على سبيل الخصوص هو تفسير العصر ومفتاحه بلا منازع، فهو حصيلة أدوار ومراحل مرَّ بها التفسير، ويمثل الخلاصة والنتاج، وهو جسم وروحه المقاصد، ولا حياة لجسم بلا روح.

المطلب الرابع: ضوابط ينبغي مراعاتها عند إبراز المقاصد في الموضوع القرآني

من فرط حبهم لكتاب الله تعالى، وشدة تعلقهم به، وحرصهم على التوجيه السليم لمفسري القرآن العظيم وضع العلماء ضوابط ومنطلقات ينبغي أن تراعي في الموضوع القرآني، ونجملها في النواحي الآتية:

أولاً: الإخلاص لله رب العالمين

---

[62] سعيد، عبد الستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي**، ص53

الإخلاص هو روح الأعمال، والباعث الحثيث في حسن أدائها، والضمان لقبولها، فكل الأعمال الصالحة ضابطها الأول الإخلاص، وخاصة إذا كان العمل في خدمة خير الكلام وأشرفه، كلام رب العالمين.

فينبغي على طالب هذا العلم أن لا يجعل للشيطان عليه سبيلاً بأن يجعله ينتظر المدح من مخلوقين مثله؛ بل يجب عليه أن يستعيذ بالله تعالى منه، وأن يكون همه الإخلاص في النية والقصد ابتغاء مرضات الله العلي الكبير، قال تعالى:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[63]، وهذا الضابط هو أهم الضوابط، وأعلاها.

ثانياً: الإلمام التام بمقاصد القرآن، والموضوعات القرآنية.

لأهمية المقاصد في الموضوع القرآني، فإنه لا يمكن لأي مفسر أن يلج مواضيع القرآن دون أن يكون على دراية تامة بها، لأنها – كما أسلفنا القول – لابد أن يتم استشعارها في كل خطوة من خطوات البحث، فهي مفتاح الاطلاع على الموضوعات،بعدها تتم عملية الاختيار، وهي لا شك عملية ليست بالهينة، ثم يسير في تقسيم موضوعه سيراً حسناً، ويكون عمله مقبولاً بنتائج مرضية.

كما أن على المفسر في الموضوع القرآني أن يكون على بصيرة من موضوعات القرآن الكريم، ولا يحق له الخروج عن الآيات التي جمعها إلى آيات أخرى لا صلة لها بالموضوع الذي اختاره، بل يبقى في ظلالها، ليستنبط منها الحِكم والأسرار والحلول لكل المعضلات، كما أنه يحقٌ له الاستشهاد بالأحاديث النبوية الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين، ولكن لغرض التوضيح والبيان فقط، حتى يبقى موضوعه القرآني هو الأصل، وما سواه من الأدلة فرع.

ثالثاً: الإلمام بالتفسير الموضعي

---

[63] سورة الشورى 42: 20

نقصد بالتفسير الموضعي هو ذلك التفسير التحليلي الذي ينصب اهتمام المفسر فيه على موضعٍ واحد من القرآن الكريم، متبعاً ترتيب الآيات، سورة بعد سورة، إما بالمأثور، أو بالرأي، أو بالإجمال، أو التفصيل.

وهذا اللون هو الذي عمَّ على جل التفاسير القديمة؛ بل وبعض التفاسير الحديثة والمعاصرة أيضاً، ولا يمكن للمفسر أو الباحث القرآني الاستغناء عنه؛ بل هو شرط للتفسير الموضوعي، وهو تمهيدٌ وامتدادٌ له، وما خلفه العلماء الأجلاء من ثروة علمية متنوعة ستبقى الوسيلة والزاد في حسن إدراك حقائق وموضوعات القرآن.

لذا قرر العلماء ضرورة النظر في التفاسير التحليلية، دون إغراق في ذلك، لكي لا تطغى على موضوعية الموضوع، وحتى يتصل حاضر الأمة بماضيها، ولا نبخس مجهود العلماء السابقين وبذلهم ما وسعهم في خدمة الذكر الحكيم، يقول د. الخالدي: (يجب على من أراد الخوض في التفسير الموضوعي أن يحقق ويُحصِّل التفسير الموضعي أولاً، وأن يتمتع بعلمٍ تفسيري تحليلي، وأن يقرأ في كتب التفسير الموضعي، على اختلاف تياراتها ومدارسها، وبعد أن يتمكن من هذه المرحلة، ويتزود من هذا الزاد، يخطو الخطوة الثانية، فينظر في موضوعات القرآن وحقائقه...ولا بد أن يطلع على تفسيرها عند أمهات كتب التفسير التحليلي الموضعي، مثل تفاسير الطبري والزمخشري والرازي وابن كثير وسيد قطب.)[64]

رابعاً: التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل

وهذا الضابط مهم في درس الموضوع القرآني، وقد أكد على أهميته العلماء، فهو بمثابة الكشاف المدقق، والفاحص البصير لكل الألفاظ القرآنية المتعلقة بالموضوع، وفي هذا يقول د.عبد الستار: (ينبغي النظر الشامل، والاستيعاب الكامل لكل الألفاظ القرآنية الواردة في موضوعٍ ما، وتقليب الفكر والنظر في استعمالاتها المتعددة، وحصر الفروق بين أصل الوضع وواقع الاستعمال، وعدم متابعة الغير في ذلك إلا بعد التحري، والتحرير، والفحص البصير.)[65]

---

[64] د. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، ص44

[65] سعيد، عبد الستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي**، ص74

إن عملية جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد ليست بالأمر السهل، مع الرغم من وجود الوسائل العصرية الحديثة، ويزيد الأمر صعوبة إذا كان الباحث أو المفسر غير حافظ للقرآن الكريم.

وهذا الكلام لا أقوله لتهويل الأمر، بل هذا واقع مشاهد عند بعض الباحثين المعاصرين الذين صعب عليهم الاستمرار في ذلك، وربَّما يخالفني غير واحد في ما ذهبت إليه.

وشاهد آخر لما أقول، وهو أن التفسير الموضعي مثلاً يستطيع أن يلجه المفسر ولو لم يكن حافظاً لكلام الله تعالى، لأن تفسيره سيكون متتابعاً بحسب ترتيب الآيات وتسلسلها في المصحف، بخلاف التفسير الموضوعي وعلى سبيل الخصوص للموضوع القرآني، والسر في ذلك، هو ارتباط المقاصد ارتباطاً وثيقاً في عملية جمع الآيات، فالمقاصد القرآنية يجب أن تكون حاضرة في ذهن المفسر، لأن الحصر في الموضوع القرآني يقتضي التريث والتدبر أثناء الحصر والجمع، فربما يجمع المفسر بعض الآيات ويظن أن رابطاً ما يجمعها، وبعد النظر يستنتج خلاف ذلك، بسبب عدم استشعاره لمقاصد القرآن الكريم أثناء الحصر.

وقد وضع د.عبد الستار بقوله هذا أسساً وحدوداً تنضوي تحتها الجزئيات الكثيرة التي تحتاج إلى بحوث لتأصيلها، وضرب الأمثلة والشواهد لبيانها، وهذا كله مرده التقعيد الدقيق لهذا العلم، والحرص الشديد على تثبيت دعائمه وأركانه.

ويضيف قائلاً: (وقد لفت العلماء الأنظار إلى ذلك من قديم، لكن مع الأسف شاعت في الكتب أخطاء جمة من جراء هذا التقعيد بلا تحرٍّ، أو لأخذ كلام غيرهم ونقله بلا نقد وميزان، مما يجب الاحتياط منه في التفسير الموضوعي بوجه أخص.)[66]

ومن ثم كان على من يتصدى للبحث في الموضوع القرآني أن يضع نصب عينيه هذا الميزان، ميزان الدقة والتحري والضبط والإتقان، مستشعراً فوق ذلك هدايات الرحمن في مقاصد القرآن.

خامساً: التجرد من التعصب المذهبي والفكري

---

[66] المرجع السابق ص74

الباحث في الموضوع القرآني ينبغي عليه قبل الخوض في اختيار موضوعه أن يتجرد من التعصب المذموم والممقوت لمذهب معين، أو فكر معين، أو طائفة، أو حزب، أو كل ما يؤدي به للانحياز وعدم الحياد في بحثه الموضوعي، وهذا النوع من التعصب قد انتشر انتشاراً واسعاً في التفسير الموضعي التقليدي، فذاك مفسر معتزلي طوع الآيات لنصرة مذهبه، وآخر شيعي خلط التفسير بما يعلي من شأن انتمائه العقدي...وهلم جرا.

لهذا نبَّه العلماء على خطورة التعصب في كل عمل، وبوجه أخص في درس الموضوع القرآني، يقول د. زياد خليل: (لا ينبغي أن يدخل المفسِّر إلى الموضوع القرآني بمقررات سابقة، أو بأفكار مذهبية؛ لأن دوره يتمثل في القيام بعملية استقرائية استكشافية باحثة عن المواقف والحقائق والأصول القرآنية الخالصة، يريد أن يسير مع النص القرآني، لا أن يسير النص القرآني معه ليوافق هوى في نفسه، أو مصلحة يبتغيها من وراء ذلك النص، كما فعل أصحاب المذاهب والفرق الضالة.)[67]

وهنا تبرز أهمية الانطلاق من مقاصد القرآن، فلو أدرك المفسر الحكمة منها لصحَّحَ مساره، ونبَذَ التعصب، وآمَن أنَّ هذا الكتاب كتاب هداية للناس جميعاً، وأنه كتاب علم ومعرفة وتربية وتوجيه وسلوك.

سادساً: عدم الاستغراق في القضايا اللغوية والفقهية والعلمية

من الفروق الجوهرية بين التفسير الموضعي والموضوعي أن الأول يكتفي فيه المفسر بتحليل الآيات وجملها وتراكيبها، تارة إلى القضايا اللغوية، وتارة أخرى إلى الفقهية أو العلمية، وهذا بخلاف التفسير الموضوعي الذي لا يجعل من هذه القضايا حاكمة على التفسير؛ بل هي معينة له، ولا يكثر من الاستغراق فيها بالأمثلة والشواهد إلا لشرح جزئية، أو بيان حال.

وحتى لا يُجنح بالموضوع القرآني إلى ما جنح إليه التفسير التقليدي، أكد العلماء على ضرورة الانطلاق من المقاصد في كل مرحلة من مراحل الموضوع، فالبعد عنها يؤدي إلى البعد عن المقصد، والوقوع فيما تم التحذير منه، يقول د. عبد الستار:(التفسير الموضوعي نمطٌ علميٌّ منضبطٌ ومحدد، يدور فيه الجهد حول جمع الآيات، واستخلاص حقائقها المباشرة، أو استنباط معانيها وخطوطها الجامعة، فلا يجد المفسر فرصةً للاستغراق في لونه الفني الذي

---

[67] الدغامين، زياد خليل، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص44

طغت على التفسير قديماً...والمفسر الموضوعي قد يذكر شيئاً من هذه الفنون عرضاً لا غرضاً، ولبيان معنى جزئي في موضعه، بحيث لا يقطع عليه موضوعه الأصلي...ويجد المفسر نفسه دائماً في دائرة الموضوع الواحد.)[68]

وبعد فهناك ضوابط أخرى ذكرها العلماء، ولكن اكتفينا بذكر الأهم منها، وما رأيناه يخدم الموضوع القرآني، وهدفنا من وراء ذلك المساهمة في الدفع بالتفسير الموضوعي، وحث طلبة العلم في استظهار حِكمه وأسراره، كي يـؤدي دوره في واقع الحياة، وحتى يصير بحق تفسير العصر، الذي تتجلى فيه مقاصد القرآن في أسمى صورها، فلكل عصر علماؤه الذين يعايشون الواقع وما يعتريه من وقائع ومستجدات، فيجتهدون ويفسِّرون وهم على يقين أنهم لم يأتوا بالقول الفصل، ولكنهم حلقة من حلقات سبقت، ودورة من أدوار تترى في خدمة الذكر الحكيم، وهـو مظهر من مظـاهر إعجـازه إلى أن تقوم السـاعة، وصدق الله العظيم في قولـه:

﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [69] .

---

[68] سعيد، عبد الستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي**، ص53

[69] سورة آل عمران، 3: 7

الخاتمة

في ختام هذا البحث ومن خلال ما سبق عرضه وتحليله، أود أن أعرض لأهم ما توصلت إليه من نتائج بعد دراسة وتحليل المقاصد القرآنية وأهميتها في درس الموضوع القرآني، وأن هذه النتائج إجمالاً تتلخص في النقاط الآتية:

أولاً: التفسير الموضوعي علمٌ شريفٌ جليلٌ، لتعلقه بأشرف الكلام، وهو كلام ربنا عز وجل، ويزداد شرفاً في دعوته للتدبر في آياته، واستجلاء أسرارها، فصار كلُّ من يُنزل القرآن منزلته، ويفسره تفسيراً موضوعياً، ويطبق خطواته بالصورة المثلى فهو ممتثلٌ لأمر الله تعالى بالتدبر، في قوله:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص: 29]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء : 82].

ثانياً: كما أن للقرآن الكريم إجمالاً مقاصده الأساسية التي ينبغي معرفتها، واستظهارها، كذلك فإنَّ لموضوعاته مقاصد وأهداف لا يدركها إلا من تمرَّس في هذا العلم الجليل، وكم في القرآن الكريم من مقاصدَ وأهداف لو تدبرناها حق التدبر، وأنزلناها في قلوبنا وحياتنا لتغير حالنا إلى أحسن حال.

ثالثاً: إن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى هدايةً للناس جميعاً، ولإعمار الأرض، وإخلاص النية له تعالى، وهذه الهدايات مبثوثة في سوره وآياته ؛ بل حتى في حروفه أيضاً، وإن الباحث في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني سيدرك مدى الحاجة لطلب هذا العلم، وسيُدرك أيضاً قيمة الإلمام بالمقاصد التي بدون معرفتها واستشعارها يصبح المفسِّر كالذي يدور في حلقة مفرغة، ولن يستطيع أن يبرز أسرار تلك المقاصد من خلال اختياره للموضوع القرآني، ومن ثمَّ يصبح عمله هشًّا ناقصاً لاروح فيه، فيصير كالجسد بلا روح.

رابعاً: إن العلم بمقاصد القرآن الكريم الكلية ضرورة حتمية في دراسة الموضوع القرآني، فإذا كان الاتجاه السليم لتصحيح مسارات جميع العلوم هو بث الحياة فيها من جديد من خلال نشر هدايات القرآن الكريم وبثه فيها من خلال مقاصده، فمن باب أولى أن يكون من لزوميات

البحث في الموضوع القرآني، فلا يمكن أن نتصور مفسراً يحاول دراسة موضوع من موضوعات القرآن الكريم وهو لا يدرك المقاصد، ولا ينزلها منزلتها في بحثه، ولا يدرس الموضوعات وفق مقتضياتها.

خامساً: إن المستقبل للتفسير سيكون مزدهراً – بعون الله تعالى– في ظل وجود علماء أجلاء يُبَصِّرون الناس بأسرار هذا النور والتعمق في استخراج مواضيعه من آياته ووضعها حلاً لجميع المعضلات والمحن، لأن المشاكل التي تواجه الناس متجددة ما دامت الحياة، ونصوص القرآن الكريم محددة، ولا يمكن أن نجد حلاً لكل مشكلة مذكورة باسمها؛ بل نستخرج الحل الذي هو موجود حتماً، لكن من مقاصده وهداياته.

سادساً: من الصعوبة بمكان أن يلم المفسر في موضوعات القرآن بكل تلك الموضوعات إذا لم يكن على استيعاب شاملٍ لمقاصد القرآن الكلية، فهي نعم الزاد وخير معين على ذلك، وذلك لتفرق الموضوعات القرآنية في القرآن الكريم، فصار من اللازم استيعاب تلك المقاصد واستشعار أسرارها وحِكمها.

سابعاً: إن المفسر للموضوع القرآني والمستشعر للمقاصد القرآنية في اختياره لأي موضوع ويريد من خلاله تقديم خدمة لواقعه لاريب في أن النتائج المرجوة من موضوعه ستكون ذات جدوى وخير كثير ليس على مستوى الفرد فحسب؛ بل على مستوى الجماعات والأمة جمعاء، وهذه ميزة من مزايا هذا اللون من التفسير فرضها على ألوان التفسير الأخرى.

ثامناً: إن المفسِّر الموضوعي والمنطلق من إبراز مقاصد القرآن الكريم لا بد وأن يتقيد بالضوابط التي وضعها العلماء حتى يكون على بصيرة من أمره، من إخلاص لله تعالى، ومعرفة تامة بمقاصد القرآن، وإلمام بآيات الموضوع، ولزوم تحري التدقيق والتأصيل، والتجرد من التعصب بكافة أنواعه، والبعد عن الاستغراق في القضايا اللغوية والفقهية والعلمية، وهذه الضوابط لاشك أنها بمثابة الموجه والمرشد، فلزم معرفتها.

تاسعاً: بما للمقاصد القرآنية من ضرورة في اختيار الموضوع، وتقسيمه إلى عناصره مترابطة متماسكة، فينبغي أن تكون حاضرة في ذهن المفسر وماثلة أمامه، ولا تغيب عنه بحال، وهي عملية أشبه بتصميم مخطط البناء، فكما أن المهندس لا يستطيع أن يعمل مخططاً مترابطاً إلا وفق ثوابت وأسس نراه يستشعرها في كل مرحلة من مراحل وضعه لذلك

المخطط، كذلك فإن المفسر الموضوعي لن يكون تقسيمه سليماً ومترابطاً إلا بضرورة وجود المقصد القرآني في كل مرحلة من مراحل ذلك التقسيم.

عاشراً: ينبغي أن توجه أنظار الباحثين والدارسين للعناية بهذا العلم الجليل، وأن يكون الهدف الرئيس من توجههم لتفسير القرآن الكريم تفسيراً موضوعياً إبراز المقاصد القرآنية التي وإن حظيت بالدراسات قديماً وحديثاً؛ إلا أنها لا زالت تحتاج المزيد والمزيد من البحث الموضوعي فيها، وهي لا شك أن لها الصدارة على ما سواها، وفي ذلك الخير كله بغية الامتثال لأمر الله تعالى، ورجاء عفوه وغفرانه....

الحادي عشر: لا يمكن للمفسر أو الباحث في الموضوع القرآني الاستغناء عن التفسير الموضعي؛ بل هو شرط للتفسير الموضوعي، وهو تمهيدٌ وامتدادٌ له، بشرط عدم الاستغراق فيه، ونقول: إنه من غير المنطقي أن نبخس الدور الذي قام به أولئك الأفذاذ، فهم بلا شك المؤسسون لهذا العلم، وهم من وضع أركانه، وأن ما خلّفوه من ثروة علمية متنوعة ستبقى الوسيلة والزاد في حسن إدراك حقائق وموضوعات القرآن، وما فعله المحدثون إلا استكمال ذلك البنيان، ومحاولة تحسينه وترميمه.

الثاني عشر: حَظِي التفسير الموضعي التحليلي بالاهتمام الكبير فألفت فيه المجلدات الطوال، والموسوعات الضخام، وطبعت فيه العديد من الطبعات قديماً وحديثاً، ولم ينل التفسير الموضوعي من ذلك إلا القليل، ولكن يبقى الأمل موجوداً في النهضة بهذا اللون من ألوان التفسير، وبالأخص مع وجود ثلة من العلماء الأفاضل الذين بات همهم الرقي بهذا العلم سواء بالمؤلفات أو المحاضرات، أو بعقد المؤتمرات والندوات هنا وهناك، وهذا كله يبشر بخير، ولذا نستحث الهمم، ونشد على أيدي أساتذتنا وعلمائنا الأفاضل، ونقول لهم: استمروا في مساعيكم ولا تهنوا ولا تحزنوا فأنتم الأعلون.

الثالث عشر: دعوة صادقة نوجهها إلى كل محب للنور الإلهي وأهله أن يساهموا في نشر هذا العلم، وذلك بتكريم الرعيل الأول من العلماء المعاصرين الذين لهم قصب السبق في نشره، وتوضيح معالمه، ومن خلال تشجيع الباحثين وطباعة المؤلفات وإقامة اللقاءات العلمية التي تعد أحد حلقات الوصل بين العلماء في كافة الأقطار.

والْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ

مراجع البحث

ابن زكريا، الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هــ– 2001م.

ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار الفجر، ماليزيا، ودار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى 1420هــ– 1999م.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، **معجم تهذيب اللغة**، تحقيق: د. رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هــ2001م.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني، **التعريفات**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هــ 2000م.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، د. محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1420هــ–1999م.

الجويني، مصطفى الصاوي، **مناهج في التفسير**، منشأة المعارف، الإسكندرية.

الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق** ، دار النفائس، الأردن، ط1،1418هــ 1997م.

الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** ، دار البشير، عمان ، الأردن،ط1، 1995م.

رضا، السيد محمد رشيد، **الوحي المحمدي**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1406هــ.

سعيد، عبد الستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي** ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط2، 1411هــ– 1991م.

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، **الموافقات في أصول الشريعة** ، شرح وتخريج الأحاديث: مجموعة من العلماء، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هــ-2001م.

عز الدين، العز بن عبدالسلام، **نبذ من مقاصد الكتاب العزيز** ، تحقيق: أيمن عبد الرزاق الشوا، مكتبة الشام، دمشق، سورية، ط1، 1416هــ1995م.

الغزالي، أبوحامد محمد بن محمد الغزالي، **المستصفى من علم الأصول**، تصحيح: نجوى ضو، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى د.ت

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير**، تحقيق: يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1429هــ- 2008م.

القرضاوي، د.يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم** ، دار الشروق، القاهرة، ط 3، 1421هــ2000م.

المراغي، أحمد مصطفى، **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر.

مسلم، د.مصطفى، **مباحث في التفسير الموضوعي** ، دار القلم، دمشق، سورية، ط 2- 1418هــ- 1997م.